قراءة جديدة في قضية
الدعوة إلى العامية

د. عبدا أحمد خليل إسماعيل
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الأزهر - غزة

Abstract

it is difficult to ascertain involvement of the imperialists and missionaries in revivng the call for colloquialisam . it seems that this call was revived by individuals who were not incited by any theorizing party . These were Muslims , Christians and foreigners and the people who opposed the call were also Muslims and Arab Christians .

The call for colloquial dialect was stimulated particularly in Egypt at the time of British occupation . A set of factors led to that call . These include the democratic intellectual atmosphere which Egypt enjoyed then and the Egyptian scientific and industrial renaissance . it occurred during the linguistic crisis based on the supremacy of colloquialism over the feeble standard Arabic of the that time . Darwinian ideology provoked workers on life and on death of languages - an issue that abbsorbed Europe and the East as of the last third of the 19 th century .The difference between Arab and Western scholars in thier view of the relation between language and faith any faith can be added to these factors .

The call for colloquialism was renovated in Egypt due to these reasons . it was clamorous , but the coincidence of the its revival with the advent of the English led many Arab researchers to say that the English were behind the call for colloquialism .

خلاصة البحث

خلاصة البحث أن من الصعب الجزم بتورط المستعمرين و المبشرين في بعث قضية الدعوة إلى العامية ، بل الظاهر أن هذه الدعوة قد بعثها أفراد لا يبدو أن جهة منظمة كانت تسيرهم ، ثم إنهم كانوا من المسيحيين ، و المسلمين ، و الأجانب ، و كان الذين وقفوا في وجه دعوتهم كذلك من المسلمين ، و المسيحيين العرب .

و قد انبعثت الدعوة إلى العامية في مصر بالذات - زمن الاحتلال البريطاني - بفضل جملة من العوامل منها : الجو الفكري الديمقراطي الذي عاشته مصر ، و النهضة العلمية و الصناعية المصرية وسط الأزمة اللغوية القائمة على تفوق العامية على الفصحى الواهنة آنذاك ، و الأفكار الداروينية التي فتنت الباحثين في مسألة حياة اللغات و موتها ، و التي شغلت أوروبا و الشرق منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، ضف إلى ذلك كله اختلاف الباحثين العرب و الغربيين في النظر إلى صلة اللغة ، أية لغة ، بالدين أي دين ، لهذه الأسباب كلها انبعثت الدعوة إلى العامية في مصر ، و بلغ صخبها الآفاق ، و لكن مصادفة انبعاثها مع قدوم الانجليز قد أغرى كثيراً من الباحثين العرب بالقول بأن الانجليز كانوا وراء الدعوة إلى العامية .

زخرت المكتبة العربية المعاصرة ، بفيض وافر من الكتب والمباحث التي تناولت قضية الدعوة إلى العامية[1] وقد اجتمعت كلمة الباحثين العرب من أنصار الفصحى على أن الاستعمار والصليبية كانا وراء الدعوة إلى العامية ، حقدا منهما على العرب والمسلمين ، وكتابهم الأكبر القرآن الكريم ، وعملا على تشتيت شمل الأمة ، وتمزيق وحدتها اللسانية . وأن الاستعمار قد استغل ظاهرة الثنائية اللغوية الطبيعية في لغات الدنيا ، ليحارب الفصحى بلهجاتها المتعددة ، ووجد في اختلاف اللهجات الإقليمية ذريعة للقضاء على اللغة الواحدة المشتركة ، لغة القرآن الكريم ، التي تربط بين المشرق والمغرب بأواصر التفاهم والتجاوب ، وتجعل من أقطار وطننا الكبير وحدة فكرية ومزاجية[2].

ونراهم يشيرون بأصابع الاتهام - في هذا الشأن - إلى المستشرق الألماني (ولهام سبيتا) والإنجليزيين (ولكوكس وولمور) ، وإلى جماعة من النصارى العرب في لبنان كالخوري (مارون غصن) و (أنيس فريحة) ثم (سعيد عقل) من بعدهما ، وإلى آخرين في مصر يتقدمهم (سلامة موسى) و (ولويس عوض)[3]

([1]) انظر على سبيل المثال : أ- أباطيل وأسمار ، للأستاذ محمود محمد شاكر .
ب- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر في مصر ، للدكتور محمد محمد حسين .
ت- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، للدكتورة نفوسة زكريا .
ث- لغتنا والحياة ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن . ج- الفصحى لغة القرآن ، للأستاذ أنور الجندي .
ح- اللغة العربية بين حماتها وخصومها ، للأستاذ أنور الجندي .
خ- القومية الفصحى ، للدكتور عمر فروخ ... إلخ .

([2]) لغتنا والحياة - د. عائشة عبد الرحمن 97-98 وانظر في هذا الشأن :
أ- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين الجزء الثاني ص 288-388- مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة السادسة ، 1983 م.
ب- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر للدكتورة نفوسة زكريا - الباب الأول .
ت- اللغة والنحو بين القديم والحديث للأستاذ عباس حسن ص 264-274ز
ث- من قضايا اللغة والنحو للدكتور أحمد مختار عمر ص 122-132.
ج- الفصحى لغة القرآن للأستاذ أنور الجندي ص 111-248

([3]) انظر : أ- القومية الفصحى للدكتور عمر فروخ ص 98-152

وفي الحق أن معظم مابحوزتنا من الكتب والمباحث التي سطرت في فضح الدعوة إلى العامية وأنصارها المشهورين قد تتابعت في الظهور منذ خمسينيات القرن العشرين [1] أي بعيد ثورة يوليو 1952م واستقلال بعض الأقطار العربية وتحررها من الاستعمار البريطاني خاصة ، وبعيد تولي الثائرين العرب زمام الأمور في تلك الأقطار ، ومناصبتهم المستعمرين العداء وتحميلهم وزر تخلفنا في ميادين الحياة المختلفة ، ومطاردتهم المحتلين الانجليز في قناة السويس وحربها ، والسودان ، وخليجي عدن وعمان ، والمشيخات المتصالحة والصومال ، وحلف بغداد .. إلخ. ومن هنا كانت الثائرة على الإنجليز خاصة من كل أصحاب أمر يمكن أن يجدوا مدخلا للحملة عليهم علما أن الأمر كان يمكن أن يكون أخف حدة لو حدث قدر من التوافق بين ولاة الأمور والإنجليز.

إن علينا - على كل حال - أن نعي أن مباحث خمسينيات القرن العشرين وما بعدها - أنها من مثار زوبعة ما بعد التحرر ، وأنها ربما كانت مفعمة بهذا الجو الانفعالي الذي يزاحم العقل ، وأن علينا بعد أن هدأت العاصفة أن نتريث في قبول كل ما كتب في هذا الشأن .

إن من رسالات هذا البحث أن نتبين بهدوء صلة المستعمرين والصليبيين والمبشرين بالدعوة إلى العامية ، إننا نظن أن الاستعمار لو كان يريد أمرا محددا فهو ليس بحاجة إلى ترويج فكرة ، فسن القوانين عنده أمر سهل على نحو ما فعل الفرنسيون في مساحات واسعة من المغرب العربي ، فلم يمنعهم أحد من فرنستها ، مثلما لم يمنع أحد

= ب- لغتنا والحياة ص 107-126 والكلام كله يدور حول كتاب سلامة موسى (البلاغة العصرية) وهجومه على الفصحى .

ت- الرصافي وآراؤه اللغوية والنقدية للدكتور أحمد مطلوب ص 241

ث- النقد الأدبي الحديث في العراق للدكتور أحمد مطلوب ص 135

ج- أبـ ـ ـ ـاطيل وأسمار للأستاذ محمود محمد شاكر ، وكتابه كلمة هجوم على الدكتور لويس عوض .

([1]) انظر الكتب والمباحث السابقة الذكر .

القائمين على أمر التعليم في مصر من اتخاذ الإنجليزية لغة التعليم فيها في أواخر القرن التاسع عشر ، كما لم يمنع أحد الحكام الأتراك من فرض التركية في المشرق العربي .

وإن انتصار نفر قليل من نصارى العرب للدعوة العامية ، لا يعد في رأيي مبرراً كافياً ليحكم بأن وراء هذه الدعوة دوافع استعمارية وأخرى صليبية أو طائفية ، بل إن في ذلك إساءة وحرجا شديداً لفرسان العربية : بطرس البستاني وعبد ا البستاني ، وناصيف اليازجي وإبراهيم اليازجي ، والشدياق ، وجرجي زيدان ، ويعقوب صروف . وضومط ، والسكاكيني ، والكرملي ولويس شيخو اليسوعي .. إلخ . وكلهم من النصارى الذين جندوا أنفسهم وأقلامهم في الدفاع عن العربية دفاعا غالى فيه بعضهم مغالاة ابن فارس في تمجيدها[1] بل إن أفحم تسفيه لفكرة الدعوة إلى العامية وأصحابها من النصاري العرب إنما كان على يد النصارى العرب أنفسهم على نحو ما فعل الأبوان صالحاني ولويس شيخو اليسوعي في تسفيه فكرة الأب (مارون غصن) في الدعوة إلى العامية [2] ، والأهم من ذلك كله أن الدعوة إلى العامية لم تكن وقفا على نفر من النصارى العرب ، بل إن تاريخنا اللغوي الحديث يشهد أن جماعة من الباحثين المسلمين قد دعوا إلى مثل ما دعا هؤلاء على نحو ما نرى عند أحمد لطفي السيد ، والشيخ أحمد الأزهري ، وقاسم أمـ ـين ، وعبد العزيز فهمي ، وأمين الخولي ، وعند جماعة من علماء المسلمين ممن دعوا إخوانهم المسلمين إلى التوحد اللغوي، في لغة واحدة ، هي التركية[3].

لذلك تراني أميل إلى الاعتقاد أن الدعوة إلى العامية - منذ مبتدئها- أذاعها أفراد عبروا عن قناعاتهم ، أو أهوائهم الخبيثة من دون أن تحركهم أيديولوجية استعمارية أو طائفية ، وإنما الذي وصمها بهذه السمة هو مجرد مصادفة ظهورها مع قدوم

([1]) اقصد الأب أنستاس ماري الكرملي .

([2]) انظر رد الأب صالحاني والأب لويس شيخو على دعوة الأب مارون إلى العامية ، انظر ذلك في كتاب الفصحى لغة القرآن ص 191-196.

([3]) انظر اللغة العربية بين حماتها وخصومها ، للأستاذ أنور الجندي ص 43-68

المستعمرين ، وتبني بعض الغربيين والنصارى العرب لها ، وكل هؤلاء ينظر أبناء ملة المسلمين إليهم بشك عارم بخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمر يتصل بالعقيدة كاللغة العربية .

إن الدعوة إلى العامية - كما تبدو لي - فكرة فردية لم تحركها جهة منظمة ، وهي في الوقت نفسه ثمرة من ثمار الجو الفكري الذي عاشته مصـ ـ ـر في ظل الاحتلال البريطاني .

إن الاستعمار البريطاني - على كثرة مظالمه ومفاسده في مستعمراته - قد أطبق سيطرته على ما يهمه في مصر ، قناة السويس أولا ، وطريق الإسكندرية السويس البري والحديدي ثانيا ، وترك باب حرية التفكير وإبداء الرأي مفتوحا ، ليس على مصراعيه ، ولكنه كان مفتوحا على كل حال . وفي ظل هذه الحقيقة رأينا (جمال الدين الأفغاني)منذ جـ ـ ـ ـاء إلى مصر يدعو إلى توحيد جماعة المسلمين التي فيها قوتهم ، وعزتهم ، وتحريرهم ، ورأيناه وصفيه (محمد عبده) في مجالسهما ، وفي (العروة الوثقى) لا يكلان من دعوة المسلمين إلى هذا السبيل .

وتَخَفى (عبد ا النديم) في زي مغربي سنوات عدة ليس لمقارعته الإنجليز المحتلين ، بل فرارا من الحكم الصادر بحق خطيب هوجة عرابي ، فلما انكشف أمره وجوزي ، رأيناه بعد ذلك في (الأستاذ) يعبر عن كثير مما في صدره.

وفي سنة 1899 فَر شيخ الإسلام (عبد الرحمن الكواكبي) من حلب!!! حيث الدولة الإسلامية العثمانية ، ودار السلم إلى مصر المحمية البريطانية التي هي آنذاك أشبه بدار الحرب ؟!!، وفيها أخذ ينشر ما كان لا يجرؤ على نشره في طبائع الاستبداد على صفحات جريدة المؤيد الموالية للخديوي عباس وللآستانة!![1] وفي مصر التقى الكواكبي نفرا من أعلام الشام الذين وفدوا من قبله إلى مصر ، ليس في فوج سياحي ، بل فرارا من ظلم الحكام العثمانيين ، وطلبا للأمان في مصر الرازحة تحت حكم المحتلين الإنجليز

([1]) انظر عبد الرحمن الكواكبي للدكتور سامي الدهان ، ص 42 .

، يقول الدكتور سامي الدهان : (ولقي عبد الرحمن الكواكبي في مصر إخواننا وأصدقاء من السوريين هربوا قبله.. وكانوا يعملون لحرية العرب واستقلالهم ، فانضم إليهم وتألفت المودة بينهم .. ومنهم الشيخ رشيد رضا ، ومحمد كرد علي ، وإبراهيم العظم ، وعبد الحميد الزهراوي ، وبعض الصحفيين)[1].

وفي هذه الأثناء وبعدها بسنوات طوال كان (مصطفى كامل ومحمد فريد) يلهبان حماس الجماهير بخطبهما التي تدور حول الوطن والوطنية والحرية والجلاء . وفي مقابل ذلك كان (حافظ إبراهيم ، وإسماعيل صبري وعلي الغاياني) يلهبون حماس الشعب علنا ، لا خفية ، بقصائدهم الوطنية الرنانة ، الداعية إلى مقاومة الإنجليز ، وتحرير مصر من المحلتين ، وجلاء المستعمر البغيض ، وأخذ (قاسم أمين) يدعو إلى سفور المرأة ، و(طه حسين) إلى إعادة النظر في الشعر الجاهلي ، وإلى الشك في مصداقية روايته .. ودعا (عبد الرازق السنهوري) إلى إصلاح قوانين الشريعة الإسلامية ، وتتابع ظهور الأحزاب والصحف بأفكارها المختلفة من وطنية ، إلى دينية ، إلى عمالية شيوعية ... إلخ. وتدخل الدعوة إلى العامية في هذا السياق ، فهي ثمرة من ثمار حق التفكير وإبداء الرأي الذي اتسمت به مرحلة الاحتلال البريطاني ، ومن الخطأ المبين أن نفهمها خارج هذا الإطار وإن كنا نتوقع أنها نزلت بردا وسلاما على قلب المستعمر البريطاني ، على عكس ما نزلت خطب مصطفى كامل ، وقصائد حافظ إبراهيم.

وفي مصر انبعثت الدعوة إلى العامية ، وفيها بلغ صخبها وضجيجها الآفاق ، ولم تنبعث في العراق البدوي ، أو الشام وجل مستنيريها من النصارى الذين كانت العربية الفصحى بالنسبة لهم - في صراعهم مع الأتراك- كالسلاح في يد الجندي المدافع عن هويته وحياته ، ولأنهم في تمسكهم بالضاد آنذاك كسبوا تحالف إخوانهم مسلمي الشام ، وبذلك دخلوا في صراعهم مع الأتراك من باب العروبة ، وليس من باب النصرانية . غير أن الدعوة للعامية انبعثت سنة 1880 في مصر الناهضة صناعيا وعلميا ، حين

---

(1) عبد الرحمن الكواكبي ص 29 .

استحكمت الأزمة اللغوية ، أزمة المصطلحات العلمية والفنية ، ولم تنبعث قبل ذلك زمن الحملة الفرنسية ، ولا زمن حملة (فريزر) سنة 1806 ، أو حتى عندما استقدم (محمد علي) العلماء الفرنسيين لتوجيه نهضته العلمية والعسكرية ، على الرغم من المشقة البالغة التي كانوا يلاقونها في توصيل علومهم إلى طلاب العلم من المصريين .

إن انبعاثها عام 1880م كان في رأيي بفعل عاصفة الفكر الدارويني التي اجتاحت أوروبا ، والشرق من بعده ، منذ ستينيات القرن التاسع عشر ، وطالت كل شيء حتى اللغة[1] ولكن كيف يسوغ لنا اعتبار الدعوة إلى العامية فكرة داروينية ، ولماذا انبعثت مع قدوم المحتلين الإنجليز تقريبا .

للإجابة عن هذا السؤال بشقيه يحسن بنا أن نقف على حال العربية الفصحى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد انحدرت إلى غاية السقم والضعف مجهدة بصراعها مع التركية التي فرضها العثمانيون لغة رسمية للدواوين والتعليم [2] وأنها قد أخذت في الانحدار منذ عهد السلاجقة ببغداد في القرن الخامس الهجري ثم جعلت تتراجع في تقهقرها حتى بلغت غاية الانحطاط في ظل الحكم العثماني [3] حيث عاش العرب أحلك قرون التاريخ ، يقول نقولا زيادة واصفا الفكر العربي في تلك المرحلة : (أتى

([1]) الدعوة إلى العامية مبحث دارويني خالص ليس لأننا ندرس الداروينية ونريد أن نلصق بها كل فكرة ولكنها كذلك في أسانيدها وفي أصولها التي تقوم عليها ، ولا أدري كيف لم يتنبه الباحثون العرب إلى هذه الحقيقة من قبل .

([2]) انظر لغتنا والحياة ص 98 ويقول يوهان فك في كتابه العربية (كانت الحقبة التي عاشها العرب تحت حكم العثمانيين أحلك قرون التاريخ العربي لا من الوجهة السياسية فحسب بل من الوجهة اللغوية كذلك) العربية ص 239 .

([3]) انظر العربية ليوهان فك ص 215-239 يقول يوهان فك (وصارت الفارسية على عهد السلجوقيين لغة البلاط ، والسفارات الرسمية ، والسياسة ، والأدب ، والشعر ، وأخذت تنافس العربية من خراسان إلى داخل سورية) ص 215 .

على الفكر العربي حين من الدهر أخذه فيه سنة من النوم ، فانقطعت فاعليته ، وانعدم نشاطه ، وانكفأ على نفسه وقبع في حجرته واكتفى بقوقعته.

بدأت هذه الفترة في القرن الرابع عشر أو حتى قبل ذلك في بعض الأماكن ، واستمرت حتى مختتم القرن الثامن عشر أو مفتتح القرن التاسع عشر ، وأصبحت مراكز العلم من مدرسة سيدي يوسف في مراكش إلى القرويين في فاس والزيتونة في تونس والمعهد الأسمري في زليطن والأزهر في القاهرة وغيرها ، تكتفي بأن تحتفظ بجذوة تحت الرماد ، لكن لا لهب لها يحرق، ولا وهج لها يلفح) .[1]

ويقدم لنا (سعيد الأفغاني) وثيقتين تاريخيتين عن حال العرب والعربية في دمشق في مختتم القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إذ يقول : (... فيكفي أن تعرف أن رسالة يأتي بها البريد إلى أحد الناس فيدور بها على أهل حيه ثم على الحي المجاور فلا يجد أحدا يفك حروفها لينبئه بمضمونها ، والذين كانوا يعرفون الأربعة في الحساب من تجار سوق " مدحت باشا " في دمشق يعدون على الأصابع .... [2]

ويقول واصفا التعليم في المدارس الأميرية بدمشق : (أما المدارس الحكومية فلغتها التركية وأكثر معلميها أتراك ، ومن كان عربيا منهم ألقى دروسه بالتركية ، وتجافى عن الكلام بالعربية مع أن من يخاطبهم عرب ، حتى الكلام خارج غرف الدرس في الباحات وضعوا عليه الرقباء فمنعوا أبناء العرب أن يتحاوروا في الشئون العادية بينهم بالعربية وأوجبوا عليهم الكلام بالتركية)[3]

وكان حظ العربية في العراق أسوأ بكثير مما كانت عليه في مصر والشام، إذ يقول (موسى الألوسي) واصفا حال العربية قبيل الحرب العالمية الأولى : (ولا ريب

([1]) الفكر العربي في مائة عام - منشورات العيد المئوي بالجامعة الأمريكية بيروت ص 1 .

([2]) من حاضر اللغة العربية للأستاذ سعيد الأفغاني ، ص 15 .

([3]) من حاضر اللغة العربية ص 22-23.

أن من يمعن النظر في اللغة العربية الفصحى قبل الحرب لا يرى لها رسما ولا أثرا إلا بين أناس يعدون على الأصابع ، إذ كان لسان التدريس وأغلب الجرائد باللغة التركية .[1]

وأسوأ من ذلك كله ما كانت عليه العربية في بلدان المغرب العربي التي افترست فرنسا مساحات شاسعة منها ، وتركت لإيطاليا ليبيا ، ولإسبانيا ريف المغرب وصحراءه ، وفرضت الدول المستعمرة لغاتها على أبناء البلاد ، فكان أن تقوقعت لغة الضاد في الزوايا ومعاهد العلم ذات الصبغة الدينية فحسب .

نخلص من كل ما قدمنا أن لغة العرب بين أهلها كانت في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين على حال ملحوظ من التردي والانحطاط ، وأن الأمية بلهجاتها العامية كانت متسيدة ، وأن لغة الحكام الأتراك والمحتلين الأجانب كانت هي المعمول بها في المدارس الحكومية .

في ظل هذه الظروف بدأت مصر تنهض من جديد في عهد الخديوي إسماعيل ثم توفيق ، وأخذت مصطلحات العلوم والفنون العصرية تغزو الحياة اللغوية ، فتستوعبها العامية ، ولا تستجيب لها الفصحى الواهنة بالقدر نفسه من المرونة التي استجابت لها منافستها .

وفي هذه الأثناء ظهر (ولهلم سبيتا) 1880م بأفكاره القائلة بأن العربية صائرة إلى الموت على نحو ما ماتت اللاتينية من قبل ، وتوقع أن تخلف العامية الفصحى في ميدان الاستعمال، ودعا المصريين إلى الأخذ بالعامية ، لأن في اتخاذها طوق نجاتهم مما كانوا عليه من تخلف ثقافي وحضاري .

وفي ظني أن (عائشة عبد الرحمن) كانت على صواب كبير حين ذهبت إلى أن (سبيتا) لم يكن استعماريا ولا صليبيا فيما قال [2] بل كان -في رأيي- باحثا مشبعا بالفكر

([1]) المبـ ـاحث اللغـ ـ ـ ـوية في العـ ـ ـ ـراق (ومشكلـ ـة العربية العصرية - للدكتور مصطفى جواد ص 54-55.

([2]) انظر لغتنا والحياة ص 101.

الداروينى الذي كان مشغلة الباحثين الأوربيين أنفسهم ، وربما كان على معرفة كذلك بالنتائج الطيبة التي أحدثتها الأبجدية الصوتية في أوربا التي اتخذت من أصوات الكلام العامي وسيلة للقضاء على الأمية ، ونشر التعليم ، وعلى أية حال فإن (سبيتا) قد أقام آراءه في الدعوة إلى العامية على المبادئ الداروينية التالية :

1- إن اللغة هي المنطوقة أي المحكية ، وهذا التعريف وان لم يكن داروينيا في أصل نشأته فإن تشبع أصحاب مذهب النشوء له جعله يبدو وكأنه أصل من أصولهم ، إذ إن اللغة المحكية تظهر عليها بجلاء علامات النمو والتطور والشيخوخة أكثر بكثير من اللغة المكتوبة ، وقد اعتد (سبيتا) باللغة المنطوقة واعتبرها لغة الحياة.
2- اعتبار اللغة كائنا حيا ، يجري عليها ما يجري على الكائنات الحية ، من نمو وتطور ، وتغير ، وهرم ثم موت ، وهذا أصل راسخ من أصول الفكر الداروينى قال به (سبيتا) حين ذهب إلى أن العربية الفصحى صائرة إلى الفناء في ظل المعطيات المتاحة أمامه .
3- التناحر على البقاء ، فكل حي يريد البقاء والوجود - واللغة من الأحياء- ينبغي له أن يسعى في سبيل ذلك ، وأن يجاهد غيره في هذا السبيل ، واللغة العامية عند (سبيتا) كائن حي يتناحر مع الفصحى ، وهي في رأيه في طور الانتصار عليها.
4- بقاء الأصلح ، فالمخلوقات التي توصف بأنها ذات قدرة كبيرة على مقاومة الأفاعيل الطبيعية تكون أكثر قابلية على البقاء ، والعامية بحيويتها عند (سبيتا) أكثر قدرة على البقاء من الفصحى ، وهي -أي العامة- أصلح للحياة من الفصحى لاستعدادها استيعاب المصطلحـ ـ ـات ، ولأنها -في نظره- هي التي ستكون المخاص من الأمية والفقر الثقافي ، وما ينشأ عنهما من انحطاط سياسي وتخلف اجتماعي .

تلك في إجمال أهم المبادئ التي قامت عليها آراء (سبيتا) ، وهي كما تبدو أفكار دارونية خالصة[1] وظهورها عام 1880م ليس له أدنى صلة بالاستعمار أو الضائقة المالية التي عاشتها مصر بل إن توقيتها يتناسب مع الحركة الفكرية التي عاشتها أوربا والتي تركت آثارها على العالم العربي . ولو كانت أفكاره استعمارية لحق لنا أن نسأل لماذا لم تظهر هذه الأفكار قبل ذلك مع المستعمرين الذين دخلوا مصر مع (نابليون) (2) ثم (فريزر) من بعده ، بل مع الخبراء الفرنسيس الذين استقدمهم (محمد علي) ليقودوا نهضته الثقافية والعسكرية ؟ قد يجاب عن ذلك بأن تلك كانت في عمر التاريخ أياما معدودات، والرد على ذلك : نعم ولكن فكرة حياة اللغات وموتها لو كانت ذائعة آنذاك لوجدنا من المبشرين من يبشر بها .

إن أفكار سبيتا - مهما كان رأيك فيها- لم تخرج بعيدا عن الأوراق التي كتبت عليها ، لأن صاحبها كتبها بالألمانية ، التي كانت نادرة الانتشار في العالم العربي ، لذلك يصح لنا اعتبار أفكاره فترة مبتورة في تاريخ الفكر اللغوي العربي ، غير أن ضجيجا صاخبا قد ترتب على ما أشيع عن دور مشبوه قامت به المقتطف في الدعوة إلى العامية .

([1]) انظر في هذا الشأن - أسانيد دارون في كتابه أصل الأنواع ، ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر ص 3-21، وانظر المقتطف الجزء الثاني من السنة الرابعة 1882، ص 65 ، والهلال عدد = أكتوبر 1894 ، ص 80-88 ، وكتاب تطور الحياة لكاترين جارمن ص 14-21 ، وانظر كتابنا : في الفكر اللغوي مبحث : أثر الفكر الدارويني في البحث اللغوي .

([2]) قرأت بشغف أربعة المجلدات الأولى من كتاب (وصف مصر) الذي صنفه علماء الحملة الفرنسية 1809م ، ولم أجد في الكتاب دعوة إلى العامية ، وكل الذي وجدته وصف عابر للهجة القاهرة في نطق حرفي الجيم والقاف ، ثم تلا ذلك كلام على اغنيات للعمال تساعدهم في اعمالهم ، وهي أغنيات ذات صلة ببحور الشعر العربي .. إلخ انظر كتاب وصف مصر الجزء الأول ص 71-79.

وفي سنة 1830 احتلت فرنسا الجزائر ، وقد فوجئ بعض علماء الحملة الفرنسية على مصر بأن واقع اللهجات العامية في الجزائر مخالف لواقع اللهجات العامية في مصر ، فكان أن بادروا إلى دراسة اللهجات العربية الشرقية والمغربية ، ولكنهم لم يدعوا إلى إحلال العامية محل الفصحى . انظر : تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ، للدكتور محمود المقداد ص 132-133.

إن الغاية من هذا البحث ليست إعادة التأريخ للدعوة إلى العامية غير أننا نرى أن تحري الحقيقة فيما ينسب للمقتطف من صنيع مشبوه قد ينطوي على فائدة كبرى . فقد نشر (محمد محمد حسين) في الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ما يلي : (بدأت الدعوة في أواخر سنة 1881م حين اقترح المقتطف كتابة العلوم باللغة التي يتكلمها الناس في حياتهم العامة ، ودعا رجال الفكر إلى بحث اقتراحه ومناقشته (1) ، ولا أراني في حاجة إلى أن أتحدث عن المقتطف وعن ميوله السياسية ، والجهات التي كان يخدمها ، فقد تكلمت عنه وعن شقيقه المقطم في الجزء الأول من هذا الكتاب .(2)

وهكذا وبجرة قلم من (محمد محمد حسين) تنوسي فضل المقتطف في نشر الثقافة العلمية والأدبية ، وفي تعريب المصطلحات ، وأهملت آلاف المقالات والأبحاث الكريمة التي تضمنتها مجلدات المقتطف على كثرتها ، وامسك بخناق اقتراح ا وحده يعلم ما إذا كان ينطوي على خبائث أم هو مجرد اقتراح من الاقتراحات العجلى التي تتوالد عندما يستحكم أمر أو يراد الخروج من أزمة (3).

([1]) لم يشر أحد الى الصفحة التي نشر عليها الاقتراح المشبوه ، واكتفى كل من تكلم في هذه المسألة بالقول : إن المقتطف دعت في نوفمبر 1881م إلى كتابة العلوم العصرية بالعامية المصرية .

([2]) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج2 ص 359-360

([3]) خذ مثلا على ذلك اقتراح عمر بن الخطاب رضي ا عنه حط الزكاة عن المرتدين ، فهو من الاقتراحات العجلى التي تنبعث قبل نضجها للخروج من مأزق ، ولا يملك أحد في المعمورة من الأحياء والأموات أن يصف اقتراح الفاروق عمر رضي ا عنه بالخبث ، بل هو اقتراح متسرع للخروج من مأزق ، وقل مثل ذلك على صلاح الدين بطل المسلمين في حطين ، عندما أكرهته الظروف المحيطة به إلى توقيع اتفاقية أرسوف التي بمقتضاها اعترف للصليبيين بالسيادة على بيت المقدس ، خلا مستديرة المسجد الأقصى ، علما أنه كان قد قهرهم في حطين قبل عام من توقيع اتفاقية أرسوف ، وأخرجهم من بيت المقدس ، فالظروف وحدها هي التي أكرهت

طارت في الآفاق مقولة (محمد حسين) في المقتطف منذ أذاعتها تلميذته الوفية (نفوسة زكريا) في كتابها (تاريخ الدعوة إلى العامية) وعنها أخذ الآخذون ، وحملوا حملتها وحملة أستاذها على المقتطف ، وإذا سألتهم أن يطلعوك على الاقتراح لن تجد منهم جوابا ، وإذا سألتهم عن الصفحة التي لطخها الاقتراح الخبيث لم يجيبوك بشيء ، واكتفوا في أحسن الأحوال بالقول إن الاقتراح ظهر في عدد نوفمبر 1881م (1)

لقد تفحصت -بدقة- مقالات المقتطف ، وأبحاثها ، واقتراحاتها وأسئلتها وأجوبتها منذ صدورها حتى مختتم القرن التاسع عشر ، وكررت التحري مرارا خاصة في المجلدات التي صدرت بين عام 1880 - 1883م فوقعت على اقتراح ومقالة :

أمـ ـ ـ ـا الاقتـ ـراح - ولعله المقصود- فقد ورد في صحيفة 229 من عدد أيار 1881 (2) وهذا نصه :

اقتراح

مهما يكن من معاكسة الأحوال الحاضرة للغة العربية فطلبتها وكتبتها آخذون في الازدياد ، وهي آخذة في الامتداد ، على أنها لم تزل محفوفة بالصعوبات لا يدخل الطلبة رياضها ولو عانوا المشقات سنين عديدة ولا سيما في أمر الانشاء . ويخال لنا أن أشهر ما يمنعهم من ذلك وألزم ما يجب إزالته من أمامهم أمران أحدهما قلة شيوع الكتب النثرية بينهم فلا يتيسر لهم أن يقرأوها ويمرنوا على الكتابة وحسن الإنشاء . ويتلافى ذلك في

صلاح الدين على عقد الاتفاق المجحف ، ومن غير الإنصاف أن ننزع عن بطل المسلمين سمة البطولة لتوقيعه اتفاق أرسوف عقب انتصار حطين .

([1]) قال ذلك محمد محمد حسين ونفوسة زكريا وكل من أخذ عنهما على كثرتهم إلا محمودا محمدا شاكرا في (أباطيل وأسمار).

([2]) ترقيم صفحات المقتطف ليس دقيقا في مجلداتها الأولى على الأقل وكثيرا ما يحدث اضطراب بين الرقمين 2 ، 3 ، ولذا ربما يكون رقم الصفحة التي ورد فيها الاقتراح هو 239 أو 339 .

مذهبنا بأن يتواطأ جماعة من أرباب القلم أهل العلم على تأليف كتب متعددة معتدلة الحجم يعلو أحدها الآخر في سمو الموضوع والعبارة على أسلوب يلذ للولد الصغير ويشغل لب الطالب الكبير . وأما الكتب الشعرية (ونلحق بها الكتب السجعية كمقامات الحريري ومجمع البحرين) فالشائع منها يفي بغرض أبناء المدارس ولا سيما مجمع البحرين بكر هذا العصر الناطق بلسان عرباء العرب .

وثانيهما قاموس مختصر جامع لما كان كثير الورود من الألفاظ العربية وما شاع منها في كتابات أبناء هذا العصر مجاراة لما جد في العلم وما زاد في العوائد . حسن الترتيب حتى يسهل على الطلبة التفتيش فيه ، بسيط التعبير واضح المراد بات للمعنى خالص من الألفاظ السمجة والمهملة الوحشية. ولا يخفى لزوم ذلك للطلبة لانه وان كان في العربية قواميس مطولة تفي بأغراض المتوسعين في اللغة وآدابها فهي لا تفي بأغراض الطلبة إذ الحاجات متباينة وما يسهل على هؤلاء يعسر على أولئك . غير أنه لا يقدر على هذا القاموس إلا عالم لغوي طويل الباع في مفردات العربية وآدابها مجار لأبناء هذا العصر في المشرب خبير بالتعلم وبحاجات التلامذة . هذا ولو فرض إلينا إعطاء هذه القوس باريها لانتدبنا اللغوي الشهير الشيخ ابراهيم اليازجي لما يعهد فيه من الإجادة في انتقاء الالفاظ ووضوح العبارة ومكانة الجمل وبلاغة الإنشاء والتدقيق والتحقيق في المطالعة والمراجعة . ولما كانت الحاجة الى هذا القاموس شديدة كان رواجه على غاية الرجحان فحبذا لو أتحف العربية هذه التحفة السنية فإنها نفحة تذخر وخدمة تذكر.(1)

وأما المقالة فهي بعنوان : (لغة الكتب العلمية والصناعية) وقد نشرت في عدد يونيو حزيران 1882م ص 678-690 وخلاصتها أن الكاتب يدعو مؤلفي الكتب العلمية

(1) جرت المقتطف في معظم المقالات المنشورة على عدم ذكر اسم مؤلفها وهذه سمة غالبة في المجلدات الأولى على الأقل .

والصناعية إلى أن يتحروا المعنى أولا واللفظ ثانيا ، وأن يصنفوا كتبهم بمنأى عن الإغراق في السجع والتشبيه والمجاز .

ويرى أن تحري المعنى أولا واللفظ ثانيا كان صنيع علماء العرب القدامى في مؤلفاتهم ، وقد ساق أمثلة على ذلك مما ألف العرب في الكيمياء ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة ، والمساحة ، ثم انتهى إلى القول : (ولو أوردنا كل شذرة من كل فرع من فروع العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كتب فيها علماء العرب لملأنا سفرا كبيرا ولكننا نكتفي الآن بما أوردنا دليلا على أن الكتب العلمية والصناعية لا يقصد فيها تحسين الجمل وانتقاء الألفاظ بل تمحيص الأقوال وضبط المعاني.(1)

تلك خلاصة المقالة ، وقد عرضنا من قبل نص الاقتراح ، وكلاهما لا يدعوان صراحة أو تلميحا إلى كتابة الكتب العلمية بلغة الحياة اليومية(2)

لكن (محمود محمد شاكر) لا يتركنا في حيرة من أمرنا ، بل نراه في معرض حديثه عن التبشير وخبائث المبشرين يقول : (وأما المقتطف ، فقد وقفتُ فيه على عجيبة مذهلة !! ، لم أر لها مثيلا فيما عرفت من المجلات ! وذلك أني فوجئت بأن المجلد السادس منه ، وهو مجلد السنة السادسة من حزيران سنة 1881) طبع من كل عدد منه طبعتان ، إحداهما خالية من هذه المقالات التي بدأها في تشرين الثاني 1881م بعنوان (

---

(1) المقتطف ج 11 ، السنة السابعة ، جزيران 1882م ، ص 690.

(2) ويا ليتنا كتبناها - على ما فيها من ضرر- لأننا لو فعلنا ذلك لكان حالنا أفضل بكثير من حالنا اليوم بعد مائة سنة من انبعاث الدعوة إلى العامية وبعد أن تحررت بلادنا من المستعمر الملعون الذي ندعي نحن أنه وراء الدعوة إلى العامية ووراء الدعوة إلى كتابة العلوم بلغة الحياة اليومية .

إن أبحاث علمائنا المشهورين والمغمورين تكتب حتى اليوم في جلها باللغات الأجنبية ، وأكثر الجامعات العربية تدرس علوم العصر باللغات الأجنبية على الرغم من التوصيات المتراكمة المتدافعة المتلاحقة = بتعريب التعليم الجامعي ، وعلى الرغم من الإغراءات المادية والمعنوية التي تمنح لمن يكتب علوم العصر بالعربية الفصحى .

اللغة والنجاح) ورد خليل اليازجي عليه في كانون الأول 1881م (1) ، وتعقيب المتنكر تحت اسم الممكن على محرر المقتطف ورد خليل اليازجي وتأييده اتخاذ العامية لغة الكتابة في كانون الثاني 1882م .. فهذا كله وأمثاله لا وجود له في المجلد المختصر وعدد أوراقه 328 صفحة ، وموجود في المجلد المطول ، وعدد أوراقه 760 صفحة (2) .

إننا لو سلمنا بصحة مقالة (محمود شاكر) فإن علينا أن نكون على يقين تام من خبث الدعوة إلى كتابة الكتب العلمية بلغة الحياة اليومية ، وسنكون من السذاجة بمكان أن نفترض أن تلك الدعوة بصورتها الخادعة هي مجرد اقتراح للخروج من أزمة .

وفي الحق أن مجلد المقتطف في عام 1881م صغير الحجم بالقياس إلى المجلدات الأخرى ، وهذا ما يعضد مقالة (محمود شاكر) غير أن ثمة أمرين يخشى أن يقللا من قيمة اكتشافه وهما :

الأول - إن المقتطف مجلة بل جريدة صناعية علمية تفسح صفيحات معدودات للبحث اللغوي في أكثر أعدادها ، وفي وسعي أن أقول وأنا مطمئن : إن مجلد المقتطف المحظوظ جدا بالمباحث اللغوية هو ذلك الذي تشغل تلك المباحث ما بين مئة وعشرين صفحة إلى مائة وخمسين ، وهذا يعني ببساطة أن يعاد النظر في عدد الصفحات التي ذكر محمود محمـــد شاكر أن مجلد 1881م المتداول قد خلا منها ،لأن ذلك العدد من

(1) كان محمود محمد شاكر قد ذكر في مقالة سابقة من كتابه أباطيل وأسمار ص 185 أن الذي دعا إلى كتابة الكتب العلمية بلغة الحياة اليومية هو نصراني ثم قال : وقد رد عليه خليل اليازجي وهو نصراني مثله.

وليت شعري هل الدعوة إلى العامية إذن كانت فردية أم أنها استعمارية صليبية تبشيرية على نحو ما يقول محمود محمد شاكر ، وإذا كان الأمر كذلك فأيهما صليبي تبشيري نصراني الداعي إلى كتابة العلوم العصرية بلغة الحياة اليومية أم زاجره ؟!!!

(2) أباطيل وأسمار ص 192 .

الصفحات كبير جداً ، ولا أظن أن مجلة صناعية علمية تحظى بهذا الكم الهائل من الصفحات في البحث اللغوي .

الثاني : إن اكتشاف (محمود محمد شاكر) على أهميته قد ورد في ثنايا كتاب ضخم يغلب عليه طابع الخصومة والتهويل والمغالاة والإثارة وتكبير الحقائق وقلبها مما يجعل الاعتداد بما جاء في الكتاب أمرا صعبا من الوجهة العلمية (1).

على أية حال لقد مضت لسبيلها أفكار (سبيتا) ثم المقتطف ، ومر عقد ونيف كان الاستعمار البريطاني قد جثم على الديار المصرية 1882م وألزم المدارس سنة 1889م بأن تكون لغته هي لغة التعليم فيها. وفي سنة 1893م انبعثت فكرة الدعوة إلى العامية من جديد على يد الإنجليزي (ولكوكس) الذي لم يكن وزير مستعمرات ولا معتمد دولة التاج البريطاني ولا الحاكم العسكري في القطر المصري بل شغل وظيفة مهندس في الري المصري(2) . وذلك يعني بوضوح أنه لم يكن يمثل قوة فاعلة في البلاد ، كل ما في الأمر أنه ثقف العربية فصحاها وعاميها ، ووقف على فاعلية العامية ، ودعا من خلال مجلة الأزهر إلى الأخذ باللغة العامية الحية في الكتابة والتأليف ؛ لأنها لغة الشعب ، بدلا من الفصحى الميتة التي لا يفهمها إلا قليل من المتخصصين ، وكان الشيخ أحمد الأزهري يقف بجانبه ، ينصره في دعوته . ولما يئس من فلاح دعوته أغلق مجلته ،

(1) ان هذه الملاحظات لا تحتاج إلى توثيق ، فيكيفك أن تتصفح الكتاب لترى هذه الملاحظات ماثلة أمامك بكل جلاء .

(2) شتان ما بين دنلوب وولكوكس . الأول رجل دولة التاج البريطاني ينفذ سياستها وقد فعل ما فعل في فرنجة التعليم فكان مكره له عدوا وحزنا ؛ إذ إن خيرة نجباء مصر من المثقفين الذين قادوا الحركة الفكرية في مصر والبلاد العربية كانوا من أولئك الذين ثقفوا الثقافة الأجنبية .

وأما الثاني فهو مهندس كان يعمل في أقصى صعيد مصر ، في خزان أسوان وكان يقطع وقت فـ ـ راغه يدرس العربية المحكنة وقل في هذا الشأن ما بدا لك قل إنه كان يحقد على الإسلام والعرب ، وزد على ذلك بما توسوس به نفسك ونفوسنا نحن المسلمين تجاه هؤلاء وأمثالهم ، لكن عليك أن تتذكر في النهاية أن ولكوكس ليس رجل دولة

وهذا أمر يزيدنا قناعة في أن الدعوة إلى العامية ذات صبغة فردية ، ولم يكن يسيرها جهة منظمة كالاستعمار مثلا ، إذ لو كان الأمر كذلك لحشد أقلام مطاياه . ومحاسبيه ولاستمر ظهور (الأزهر) فترة أطول مما قدر لها ، ثم إن الاستعمار ليس بحاجة إلى ترويج أفكار إذا كان يريد أن يفعل شيئا في مستعمراته ، غير أن ما هو مغروس في قلوبنا من شك في النصارى واليهود جعلنا نندفع في القول بأن الاستعمار وراء هذه الدعوة ، وكيف لا يقوى هذا الوهم فينا ومفجر الدعوة إنجليزي من المحتلين ؟!.

لقد اجتمع خلق كثير على الوقوف في وجه دعوة (ولكوكس) ومخاطرها على لغة العرب لغة القرآن الكريم ، والتراث العربي ، ولست في صدد ذكر مشاهير المدافعين عن الفصحى ، ولكن الذي يهمني أن أنبه عليه ، أن (جورجى زيدان وإبراهيم اليازجي) -وهما من أعمدة النصارى العرب - كانا من أنشط المدافعين عن الفصحى لغة القرآن الكريم .(1).

خفت صوت الدعوة إلى العامية بعيد (ولكوكس) ولم تصرخه محاولة القاضي الإنجليزي (ولمور) الذي نشر في عام 1901م كتابه (العربية المحكية في مصر) ولكن الدعوة إلى العامية قد اتخذت فيما بعد منحى جديدا حين انتصر لها نفر من نصارى مصر والشام متسلحين في دعواهم بالفكر الدارويني القائل بحياة اللغة وموتها ، ذلك ما أظهروه في مباحثهم وليس يعنينا ما إذا كان يعتمل في نفوسهم هم وولكوكس من قبلهم شيء من العداوة للعرب والإسلام ولغة القرآن الكريم .

لقد نفث (سلامة موسى) أفكاره في كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) فدعا إلى لغة جديدة عامية فصيحة ؛ لأنه لا يجب أن يكون للمجتمع لغتان إحداهما كلامية منطوقة وهي العامية والأخرى فصحى خرساء تبدو كأنها لغة الكهان التي لا تتلى إلا في

---

(1) انظر : أ- الفصحى لغة القرآن ص 129.

ب- انظر دفاع الشيخ إبراهيم اليازجي عن الفصحى في كتاب تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر.

المعابد(1) يقول : (ولهذا يجب أن تكون غايتنا توحيد لغتي الكلام والكتابة ، فنأخذ من العامية للكتابة أكثر ما نستطيع ، ونأخذ من الفصحى للكلام أكثر ما نستطيع حتى نصل إلى توحيدهما) (2) ولم يدع (سلامة موسى) - في البلاغة العصرية - صراحة إلى نبذ الفصحى ولكنه حمل عليها واعتبرها مسئولة عن تخلفنا الحضاري والمدني ودعا إلى تزويدها بالمصطلحات العصرية. (3)

وفي بلاد الشام دعا غير باحث إلى العامية صراحة ، نذكر منهم الخوري (مارون غصن ، وأنيس فريحة ، ثم سعيد عقل) وسنكتفي ههنا بعرض آراء مارون غصن ، لكونها تمثل آراءهم جميعا :

لقـ ـ ـد دخل الأب (مارون غصن) ميدان الدعوة إلى العامية مستأنسا بوهن العربية ، مستعينا بالفكر الداروني ، فذهب إلى أن العربية الفصحى صائرة إلى الزوال شأنها شأن كل الكائنات الحية ، ولمناظرتها باللاتينية ، وأن عجز العربية عن القيام بمهامها في مواكبة تطور الحياة يوحي باندثارها ، وبحيوية العامية وأن هذه الأخيرة مؤهلة لأن تكون لغة الحياة .(4)

إن دخول النصارى في هذا الميدان قد دفع الباحثين من المسلمين إلى القول بأن الصليبية أو النصرانية وراء الدعوة إلى العامية هذه المرة (5) ، وفي ظني أنه وإن كان وراء الأكمة ما وراءها فإن المباحث التي عرضت هذه المسألة كانت فردية وقد تسلحت

([1]) انظر البلاغة العصرية واللغة العربية ص 44.

([2]) البلاغة العصرية واللغة العربية ص 44 .

([3]) انظر خاتمة كتاب البلاغة العصرية ص 185-188.

([4]) انظر أفكار الأب مارون غصن في هذا الشأن في :

أ- القومية الفصحى د. عمر فروخ ص 123-127. ب- الفصحى لغة القرآن ص 191.

ت- اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي - الجزء الثاني - لبنان - للدكتور رياض قاسم ص 632-634.

([5]) انظر القومية الفصحى ص 123-150

في عرض أفكارها بما أفرزته الأفكار الداروينية ، ثم إن أعظم نقد قد وجه إلى آراء الأب غصن مثلا إنما كان من آباء مثله على نحو ما أسلفنا سابقا.

وهكذا تلتقي خيوط البحث على أنه من الصعب قبول الزعم بأن الدعوة إلى العامية كـ ـ ـانت استعمارية النشأة ، أو حتى صليبية تبشيرية ، وأن جهات منظمة كانت وراء دعاتها ، ومروجيها ، بل إن الذي استقر لدينا أن أصحابها أفراد قليلون من الأوربيين ، ونفر من العرب المسيحيين والمسلمين ، وأن هؤلاء جميعا قد دعوا إلى ما دعوا إليه معبرين عن قناعتهم ، أو عما يقلج في نفوسهم ، متأثرين بالفكر الدارويني الذي كان مشغلة الفكر آنذاك في أوروبا ثم الشرق ، وأنهم جلهم قد أذاعوا أفكارهم في الوقت الذي استحكم فيه طغيان العامية على الفصحى ، وأنهم أذاعوها ليس في العراق أو الشام ، بل في مصر الناهضة علميا وصناعيا ، في جوها الديمقراطي الذي كان يسمح بإبداء حرية الرأي .

إن الأهم من كل ما تقدم أن الدعوة إلى العامية -على ضررها ، وافتراض خبث دعاتها ، ومكرهم - أنها قد أحدثت زلزلة في حركة البحث اللغوي العربي عادت بالخير العميم على العرب والعربية والبحث اللغوي عامة.

إن شعورا عميقا بالقلق بل الخوف من عاقبة فناء الفصحى قد دفع الباحثين العرب فرادى وجماعات إلى النهوض بلغتهم للوصول بها إلى درجة الحياة ، وقد سار البحث اللغوي في اتجاهين عريضين تفصيلهما يحتاج سفرا كاملا ، ولكننا نكتفي في هذه العجالة بعرض إشارات برقية تتناسب مع بحثنا الموجز.

الاتجاه الأول خاص باللغة العربية الفصحى ، فإن أصوات الداعين إلى العامية قد أثارت حفيظة الباحثين العرب الذين خفوا فرادى وجماعات إلى البحث في اللغة العربية ، ومميزاتها ، وصلاحيتها للحياة ، والحضارة ، وبيان صلتها باللغات الشرقية والغربية ... مما أنعشها وأنعش البحث اللغوي بعد ركود طويل ، ولا أراني أعدو الحقيقة إذ قلت : إن مجامعنا اللغوية فكرة ، وحقيقة ، وقراراتها ، وجهود علمائنا في تنمية اللغة العربية ، وتوسيعها ، ورفدها بالمصطلحات العلمية ، والفنية ، والمعجمات العامة ، والمتخصصة .

والمؤتمرات المتلاحقة ، وتعريب التعليم الأساسي وقدر من الجامعي ، واستشراف مستقبل الفصحى ، إن ذلك كله كان بصورة أو بأخرى من الثمار الطيبة التي عادت علينا بالخير العميم جراء الدعوة إلى العامية .

الاتجاه الثاني خاص بالعامية وصلتها بالفصحى ، ويتمثل ذلك في إقبال الباحثين العرب على دراسة ازدواجية اللغة باعتبارها ظاهرة لغوية تستحق البحث، وكذا دراسة أصول ألفاظ اللهجات المحلية ، وقواعدها ، وصلتها باللهجات العربية القديمة ، ولغات الأمم التي كـــــانت شائعة قبل الفتح ، وكذا دراسة صلة العامية بالفصحى ، والفصح الشوارد ، وما تحفظه العامية ، ووسائل توحيد اللهجات المحلية ، وتقريبها من الفصحى ، وتصور مستقبل اللهجات العربية ، ودراسة الأدب الشعبي ، ولغة المسرح والرواية خصوصا لغة الشخصية إذا كانت من العوام ، وكذا دراسة التطور اللغوي التاريخي للألفاظ العامية والفصيحة والأخطاء اللغوية الشائعة ، وقدم العامية... إلى غير ذلك من فيض المباحث التي غمرت مجلات المجامع اللغوية ومحاضر جلساتها (1) والتي أحدثت ما يمكن أن يوصف بأنه ثورة في حركة البحث اللغوي العربي .

على أن الطريف في الأمر أن كما عظيما من الأبحاث التي تدافعت على خدمة اللغة العربية ، وكذا ظهور المجامع اللغوية ومؤتمراتها التي انشغلت بالبحث في سلامة العربية وترقيتها ، - إن ذلك كله - قد تم والبلاد العربية لم تتحرر بعد من الاستعمار الذي ينحى عليه باللائمة بأنه باعث الدعوة إلى العامية ومحركها ، ويناظر ذلك في الأهمية والطـــــرافة معا أن الباحثين العرب من مسلمين ومسيحيينن قد جهدوا - في ظل المستعمرين - في النهوض بلغتهم وتوسيعها وجعلها وافية بمقتضيات العصر . وهذا أمر من شأنه أن يجعل الربط بين الاستعمار والدعوة إلى العامية يبدو مضحكا .

يبقى لنا - على أية حال - ثلاث ملاحظات ذات صلة قوية بما نحن بصدد بحثه .

---

(1) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ومحاضر جلسات لجان المجمع .

الأولى- كلمة طيبة قالها عبد الصبور شاهين خلاصتها أن جل دعاة العامية هم من غير المتخصصين في الدراسات اللغوية ، وقد أدى عدم معرفة هؤلاء بالدرس اللغوي إلى أن وقعوا في أخطاء ساذجة تدل على الجهل.(1)

إن مقالة الدكتور عبد الصبور شاهين تبدو صائبة إلى حد كبير ، وهي -في رأيي- تتصرف على أنصار الفصحى ، على نحو ما نرى مثلا في كتابي أنور الجندي (الفصحى لغة القرآن) و(اللغة العربية بين حماتها وخصومها) ، وعلى نحو ما رأينا دعاة العامية حين تهافتوا على النظرية الداروينية ، وآمنوا بسذاجة بمقولة فناء اللغات فناء الكائنات الحية ، وبهر أبصارهم سراب الشبه بسالوقتي الزائل بين العربية واللاتينية (2) فسارعوا إلى القول بإحلال العامية محل الفصحى وبما واهمين بالتبشير بسبق علمي أو لعلهم يحققون في الواقع ما يمنون به أنفسهم ، غير مدركين أن النظريات التجريبية التي توصف إجمالا بالثبات والدقة لا تستقر على حال بل تظل عرضة للزعزعة ، فما بالك بنظرية فلسفية بكر غير ثابتة الخطا وهي قد وجدت منذ مهدها من ينكر عليها قولها إن اللغات كائنات حية يجري عليها ما يجري على الكائن الحي .

الثانية - إن مرد التوتر الناشب بين دعاة العامية وحماة الفصحى يعود بالدرجة الأولى في رأيي إلى اختلاف الفريقين في النظر إلى صلة الدين أي دين باللغة أية لغة ، فصلة الدين باللغة عند دعاة العامية من المستشرقين والنصارى العرب لا تختلف عن صلة التجارة

---

(1) انظر في علم اللغة العام للدكتور عبد الصبور شاهين ص 269.

(2) انظر ردود ساطع الحصري وإبراهيم أنيس ومحمود تيمور على قول القائلين بوجود شبه بين حال العربية واللاتينية ، انظر ذلك في : أ- آراء وأحاديث في اللغة والأدب ، للأستاذ ساطع الحصري ص 76-77 ومجلة اللسان الأدبي ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول 1976م - اللغة العربية واللغة اللاتينية مقارنة تاريخية لساطع الحصري 53-63.

ب- اللغة بين القومية والعالمية للدكتور إبراهيم أنيس ص 280-281.

ت- مشكلات اللغة العربية ، للأستاذ محمود تيمور ص 5-6.

والحرب والسياسة بها (1) ، ولذلك نراهم يعتبرون التحول عن الفصحى إلى العامية أمـــــرا طبيعيــــــا ، في حين يـــراه دعاة الفصحى يعني الهلاك والفنــــاء والاندثـــــار ، لأن صلـــة الـــدين الإسلامي عنــــدهم وعندي ليست بأقل درجة من صلــــة الــــروح بالجسد (2) وترى أنصار الفصحى يكتبون في هذا الشأن وكأنهم في المحراب يصلون صلاة مودع ، أما كُتّاب الغرب وأشياعهم ممن لا يعيرون صلة الدين باللغة أهمية أكبر فإن أمرهم يختلف تماما فيما يكتبون.

وفي ضوء هذا التوضيح يمكننا أن نفهم سبب توتر الكتاب العرب من المسلمين وثورتهم الانفعالية الجامحة التي حلت في مباحثهم - في أكثر الأحيان - محل العقل والعلم .

([1]) يقول ماريو باي : (ولا تزيد صلة الدين باللغة على صلة أي عامل اجتماعي آخر بها؛ فالعقيدة الدينية تؤدي إلى إبداع لغوي، واقتباس ألفاظ وعبارات من لغات أخرى، وعمليات لغوية أخرى، ومثل الدين في ذلك مثل التجارة، والحرب ، والسياسة ، والبحث العلمي، ومختلف أوجه الظواهر اللغوية، فالعـــلاقة بين اللغة والدين علاقة تاريخية محددة وليست علاقة عامة موجودة بالضرورة) لغات البشر ص55.

([2]) يقول الدكتور صلاح العربي تعقيبا على كلام ماريو باي : (الصلة بين الدين الإسلامي واللغة العربية جد وثيقة ، فالقرآن الكريم - كتاب المسلمين - هو معجزة لغوية وبيانية كبرى ، وقد أنزل بلسان عربي مبين ، وبقي نصه العربي مقدسا ومصونا في أيدي المسلمين على اختلاف لغاتهم) لغات البشر ص 58 .

وفي رأيي أن أحدا لا يملك أن ينكر صلة اللغة العربية بالدين الاسلامي ، ولكن الذي حدث فعلا أن المسلمين -في بلاد فارس وسائر بلاد شرق الرافدين - قد تخلوا منذ زمن بعيد عن لغة الضاد، واكتفوا منها باستعمال ما يلزمهم في عباداتهم ، وا نسأل ان تكون هذه الظاهرة السلبية وقتية على الرغم من طولها زمنيا ، وليس على ا بكثير أن تتهيأ الظروف ، وأن تعود اللغة العربية في بتلك البلاد لغة العبادة ولغة الحياة .

الثالثة - إن علينا أن نتوجه إلى ا بالشكر كثيرا إذا ما نما إلى علمنا أن أحدا من العرب أو العجم يطعن في كفاءة العربية ويصمها بالقصور ؛ لأن المردود الطبيعي لذلك سيكون فيضا من الأبحاث العلمية التي تعود على العربية وحدها بالخير الكثير ، ذلك ما نعمت به لغتنا العدنانية في أعقاب الدعوة إلى العامية ، وفي أعقاب الدعوة إلى الخط اللاتيني ، وكذا في قول القائلين بقصور العربية عن الوفاء بما تتطلبه علوم العصر وفنونه ومصطلحاته.

مراجع البحث

1- أباطيل وأسمار ، للأستاذ محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1972م.

2- اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي ، للدكتور رياض قاسم ، مؤسسة نوفل ، بيروت 1982م.

3- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة السادسة ، 1983م.

4- آراء وأحاديث في اللغة والأدب ، للأستاذ ساطع الحصري ، بيروت .

5- أصل الأنواع ، تشارلز داروين ، ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر ، مكتبة النهضة ، بيروت وبغداد ، دت .

6- البلاغة العصرية واللغة العربية ، للأستاذ سلامة موسى ، مطبعة سلامة موسى للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، 1964م.

7- تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ، للدكتور محمود المقداد ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1993م.

8-تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، للدكتورة نفوسه زكريا سعيد ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية 1980م.
9-تطور الحياة ، كالترين جارمن ، ترجمة بانه أرناؤوط الشرقاوي ، معهد الإنماء العربي ، بيروت 1983م.
10- الرصافي وآراؤه اللغوية والنقدية ، للدكتور أحمد مطلوب ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1970م.
11- عبد الرحمن الكواكبي ، للدكتور سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة 1984م.
12-العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، يوهان فك ، ترجمه وقدم له ، وعلق عليه ووضع فهارسه الدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي بمصر ، 1980م.
13-الفصحى لغة القرآن ، للأستاذ أنور الجندي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 م.
14-الفكر اللغوي في مائة عام ، منشورات العيد المئوي للجامعة الأمريكية ، بيروت 1967م.
15-في علم اللغة العام ، للدكتور عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1984م.
16-في الفكر اللغوي ، للدكتور عبد ا إسماعيل ، غزة ، 1995م.
17-القومية الفصحى ، للدكتور عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى 1961م.
18-لغات البشر ، ماريو باي ، ترجمة الدكتور صلاح العربي ، طبع الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، 1970م.
19-لغتنا والحياة ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1969م.

20-اللغة بين القومية والعالمية ، للدكتور إبراهيم أنيس ، دار المعارف بمصر ، 1970م.
21- اللغة العربية بين حماتها وخصومها ، للأستاذ أنور الجندي ، مطبعة الرسالة ، القاهرة دت .
22-اللغة والنحو بين القديم والحديث ، للأستاذ عباس حسن ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية 1971م.
23- المباحث اللغوية في العراق ومشكلة العربية العصرية ، للدكتور مصطفى جواد ، مطبعة العاني ببغداد ، الطبعة الثانية ، 1965م.
24-مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
25-مجلة المقتطف ، بيروت والقاهرة .
26-مجلة اللسان العربي ، الرباط .
27-مجلة الهلال ، القاهرة .
28-مشكلات اللغة العربية ، للأستاذ محمود تيمور ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة 1956م.
29-من حاضر اللغة العربية ، للأستاذ سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية 1971م .
30-من قضايا اللغة والنحو ، للدكتور أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، الكويت 1974م.
31- النقد الأدبي الحديث في العراق ، للدكتور أحمد مطلوب ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، القاهرة 1968 م .
32- ووصف مصر ، تأليف علماء الحملة الفرنسية ، ترجمة الأستاذ زهير الشايب ، مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الثانية .